رحلة الى المدينة المنورة

« تتمة ما في الجزء السابع »

في مدينة الرسول

ماذا يرى الراكب القطار الحميدي ان يرى بعينه والقطار يسرع في سيره واصلاً الليل بالنهار وكل همه من القطار بين دمشق عاصمة الاسلام الثانية وقرب عاصمة الاسلام الاولى تحتاج الى بضعة عشر يوماً الى دراسة ما فيها من الآثار العادية والتاريخية والنباتات الارضية والاحجار الحجرية والموارد الثلاثة الطبيعية او الممالك النباتية والحيوانية والجمادية ولكن على سبيل عجل كان هم منظماً لا يطالب بمثل ما يطالب به الباحث محققاً مدققاً فمعذرة الى من يتوقعون ان يروا في رحلتنا هذه فائدة تخرج عن حد ما وقع عليه النظر في ايام معدودة

ركبنا من محطة القدم في الكيلومتر ٣٢٦ الى المدينة ووقف بنا القطار ساعات في المحطات الكبرى وهي معان في الكيلومتر ٤٥٩ وتبوك في الكيلومتر ٦٩٢ ومدائن صالح في الكيلومتر ٩٥٥ ثم المدينة في الكيلومتر ١٣٠٣ وكانت المناظر تختلف عليها باختلاف الاقاليم وكنا كلما تقدمنا نحو الحجاز نشعر بالحرارة . وكان الوقت شهر آذار والطريق التي سلكها الخط الحجازي غريبة تدل على حذق في الهندسة ونقص وهي لا تبعد كثيراً عن الطريق التي كان يسلكها الراكب الشامي منذ ثلاثة عشر قرناً فيا حبذا لو الاهالي فهمت الهندسة من المهارة كما شاهدناه في النفق المسمى بطن الغول وغيره

والجبال غريبة التكوين في الطريق من بعد تبوك بعضها هرمي الشكل والآخر اسطواني وبعض مستوي الاطراف وآخر زاوية منفرجة او حادة او قائمة وجبال في بسائط منبسطة منفرجة تسير ساعات الى ان تسير الجبال ولا ترى الا رمالاً وصخوراً وليس من النباتات الا الشيء (الشيح) في بعض الاصقاع او الدوم والسمر وهما اكثر شجر الصحاري . والجبال مصبوغة حمراء او كما قال البكري (معجم ما استعجم) في وصف الجبال بين مكة والمدينة انها كلها تضرب الى الحمرة تحت الغبرة والصخور والتلال

وان المرء تحدثه نفسه وهو يطوي البيد طي السجل للكتاب من دمشق الى المدينة

كيف كان الحجاج قبل السكة الحديدية يقطعون هذه الاودية والتلول والجبال والحرات والرقات في ثلاثين يوماً على الجمال والبغال والخيل ومن يتعب وهو راكب في القطار الحديدي ثلاثة ايام كان حرياً بان يهلك وهو على ظهور المطايا او في المحفات والهوادج والمحارات ثلاثين يوماً يضاف اليها عشرة اخرى من المدينة الى مكة ولكن هي العادة تسهل الاشياء والتعب بال الراكب في الايام الاولى ثم يدمن ويمرن

اعلى نقطة في هذا الطريق اليوم العقبة تعلو ١١٥٣ متراً عن سطح البحر والمطالع تعلو ١١٤٢ متراً وفي بعض هذه الرمال يمكن انباط المياه وفي بعضها مياه يستقي منها العرب الرحالة هناك وابناء السبيل فان عشيرة الفقراء ومطرحها من تبوك الى مدائن صالح لا تقل عن ثمانمائة بيت وقبيلة بني عطية تنزل من المدور الى المعظم وهي تزيد عن الفي بيت فلو صرفت عناية الحكومة الى اسكان هاتين العشيرتين واعطائها الاراضي مجاناً والصالح منها للزراعة كثير لما اتت بضع سنين الا ودخلت هذه الضواحي والمفازات في دور عمران تغني ساكنيها عن شن الغارات او مد الاكف لابناء السبيل في استكاف الصدقات .

ومن آسف ما رأيناه في الخط الحديدي ولا سيما بعد بلاد الشام ان الاولاد والبنات والرجال والنساء يأتون يلتقطون ما تجود به اكف الراكبين من الخبز والادام يلتهمونه التهاماً وقد كاد يقتلهم الجوع كما صهرت شمس الحجاز ابدانهم وانك اذا اعطيتهم نقوداً لا ترضيهم بمثل ما يرضون بكسرات من الخبز القفار . فكأن القفار لا ينبع فيها الا الخبز القفار . وعندنا ان اعظم صدقة يتصدق بها قاصدو البقاع الطاهرة في السكة الحجازية ان يحملوا معهم ما تسمح به نفوسهم من الخبز والادام يوزعونه في المحطات على هؤلاء الجاويع المدقعين وذلك ربما تصح عزيمة ولاة الامر على تهيئة اسباب المعاش لهم

ليس من الرأي السديد ان يعلم شعب او اكثره على الشحادة بل ان يعود العمل والاعتماد على النفس ولكن ارضاً لم تشفق عليها سماؤها حرية بان يكون لابنائها عناية من حكومتها فان معظم ما نسمع به من الغزوات والغارات مسببة عن جوع مذيب والجوع كافر . فيساق الغازون الى الموت او ينالون ما يطلقون به اسد رمقهم . وكل من قطع الطريق من مكة فالمدينة فدمشق يحدثك من فقر عرب تلك الانحاء

ما هو العجب العجاب ومن الغريب ان الحكومة العثمانية لم تفكر حتى اليوم في احداث موارد للرزق يعيش منها عرب الحرمين وغيرهم من اراضت الموسم القلة .

واذا كان بعض قبائل الحرمين يعيشون من اجور الجمال باكرائها في موسم الحج للحجاج بين جدة ومكة وبين هذه والمدينة فقد قطع الخط الحديدي من المدينة الى مكة الآن او فتح للحكومة موارد حديدة يعيش منها عشرات الالوف من اهل البادية فيستغنون عن العيش من كري جمالهم في الحاج وما يجدون بعض عمال الدولة ممن قضوا سنين في نجد والحجاز من ان العرب لا يخسرون الا اذا اهلكت جمالهم وربما يضطرون الى السكنى ويكفون عن الغزو وهم لا يرتاحون الى الفلاحة والعمران والمكان . كما يغل الاعراب عن تربية الانعام وهي تدر عليهم رزقاً يستفيدون به بعض حاجتهم يشربون البانها وصوفها وشعرها وجلودها وعظامها ويبيعون حوارها واما يكثر من باديها وجمالها . ومصر وحدها تبتاع من جمال الجزيرة العربية كل سنة ما لا يقل عن مئة الف ليرة

في الجمال منافع كثيرة غفلت عنها الحكومة ولم تزل حتى الآن غير ارهاق البدو وعندي انها لو استعاضت مثلاً عن بناء الثنتي عشرة ثكنة من العلا الى المدينة التي صرفت عليها ١٨٠ الف ليرة ببعض حقول تنشئها لاعراب تلك الانحاء وطرق الكسب تجدها لهم ومدارس صالحة تعلم فيها ابنهم ما ينبههم ويحولهم عن تعرفهم وتوبانهم لاحسنت صنعاً

ولا يستهان بعدد السكان هنا فان جهينة وبلي والحويطات لا تقل عن مئتي الف رجل واكثر قبائل المدينة حرب وهي خمسون الفاً في الوجه وينبع والعلا والعقبة من اعمال المدينة والالف محارب كما قدر بعض العارفين وفي قضاء السوارقية عرب مطير وعتيبة وقد قدر مطير في البدو والحضر وحدود المدينة تمتد الى الفرع من جهة مكة وسكانها بادية كثيرة وفيها قرى واسعة وقرى حوار المدينة اثنا عشرة قرية . والفرع لا تحكها مكة ولا المدينة وفيهم كليا الارز المدي والدقيق والتمر والحب والاقط والل العرب والبرسيم في اطراف عتيبة ومطير . ومع كل ما في هذا القطر من القفر تصدر منه بعض الحاصلات كالملح والسمن والتمر والاقط والجمال والخيل والصوف والسمن ولو مد الخط الحجازي الى مكة فالبحر الاحمر ومن مكة الى صنعاء اليمن لتضاعفت صادرات الحجاز واليمن والشام ووارداتها وامكن الناس

ولا سيما الحجاج الخلاص من عاديات البدو بين الحرمين وزاد عدد الحاجين كل سنة ثلاثة او اربعة اضعاف عددهم الآن .

تقول عرب الحرمين وهم كالسائقة اشرار منذ القديم كما انبأنا التاريخ ظلوا على جاهليتهم الاولى لم يلطف الاسلام من شرتهم الا قليلا فهم يحاولون بكل ممكن ان يحوزوا دون تمديد الخط او تجعل لهم مرتبات سنوية يتقاضونها ويأمنون تقلبها في الدهر وهي لا تقل مسانهة عن ربع مليون جنيه والعقل يعذرهم بما يأتون لان من يدافع عن رزقه يعذر والحكومة وهي الوصية الطبيعية على الضعفاء حتى يقووا مضطرة بحكم الشرائع ان تنظر في حياة ابنائها لا ان تهلكهم جوعا وعريا وتمنع عنهم وعنيهم كما هي الآن من الجندية ودفع شيء من الضرائب ولو كانت تأخذ من المومسرين لتنفق على المعسرين حمدت عملها اكثر .

يعيش كثير من سكان المدينة ومكة من الصدقات والاوقاف ورواتب الحكومة وربما عالى بعضهم في هذا الاتكال ولكن كيف السبيل وتجارة بلادهم ضعيفة لا تروج الا ايامًا محدودة من السنة في موسم الحج وتكاد زراعتهم تنحصر في بعض البساتين القليلة وبعضها التي تروى من مياه الآبار بالدلاء ثم ان العلوم التي تبعث الهمم على الاعمال الاقتصادية مفقودة من بلادهم الندرة من يعرفها منهم و بلادهم لا يدخلها الا المسلمون وربما كان فيمن يزورونها طبقات راقية ولا سيما الهنود والمصريون ولكنهم لا يطيلون مقامهم الا بقدر ما يزورون او يجيء الراقون منهم ولا تمل لهم الا المجرد عن الدنيا لا يخالطون ولا يباشرون

لا جرم ان السكة الحجازية قد نفعت سكان يثرب كما نفعت سكان دمشق لان الزوار كثر عددهم في طول السنة والتجارة دبت فيها روح جديدة في الجملة والاختلاط بالامم نبه افكار سكان طيبة الاصليين الى قصورهم في ميدان الرزق والعلم . تقول السكان الاصليون وعددهم لا يكاد يبلغ ثمن السكان والباقون شاميون ومصريون ونجديون وعراقيون وتركيون وحلويون ويمانيون ومغاربيون وسودانيون وجزائريون وتونسيون ومراكشيون وصقاليون وصينيون وهنديون وقفقاسيون وطاغستانيون وجراكسة واكراد وكرجيون وايرانيون وافغانيون وبخاريون والوجستانيون وغيرهم من شعوب الاسلام يأتون هذه البلدة الطيبة ينشطون فيها للعبادة في مسجد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

للمدين معرضان دينيان معان احدهما وهو الاكبر في جبل عرفات كل سنة مرة والآخر في مسجدي مكة ويثرب طول السنة ولذلك تسمع فيهما معظم اللغات في آسيا وافريقية وترى فيهما كل السحنات من ابيض واحمر واصفر واسود ممن تفرع من الجنسين الآري والسامي ولذلك نجد المدينة المنورة اقرب الى ان تكون برج بابل لاختلاط اللغات والسحنات والعادات منها الى ان تكون عربية وهي بلد النبي العربي وفي صميم بلاد العرب . والمدينة بطبيعتها تشبه احدى مدن الارياف في مصر لان نحو ربع سكانها مصريون صعايدة ونصف الربع مغاربة والباقون مختلفون بل ما يجمعهم الحكمتون لا على ما يحكمي العادون لان البلاد المتنابة كلها ليس فيها احصاء يعتمد عليه بل كثير من اصقاعها ليس له احصاء بالمرة كالحجاز مثلاً

كنت اؤمل ان ارى عناية الحكومة بالمدينة وهي مهبط ارواح المسلمين في مشارق الارض ومغاربها اكثر من سابقها الآن اذا صح اثبات شيء من العناية لها هنا ، من الاسف انها لا تقدر هذا الامتياز المعنوي العظيم الذي تتمتع به دولة الخلافة العظمى صاحبة الحرمين الشريفين ولو قدرته حقيقة لشاكت كل صاعن وعاق في سبيل عمران البلدين الطيبين ، ما استطاعت عمارة الاوقاف فيها لعمدت تثمير اوقاف الحرمين على كثرتها وهي لا تقل عن ٧٠ الف ليرة في الشهر لا يصرف منها على الحرم النبوي كل سنة اكثر من خمسة آلاف ليرة لان الائمة والخطباء والمؤذنين ليس لهم من الرواتب ما يكفيهم فقد نجد الواحد يتناول راتباً قدره ريالان ونصف في الشهر !

وليس معنى هذا ان تصرف كل هذه الاوقاف رواتب للائمة والخطباء والمطوفين والموظفين والناظرين والمؤذنين بل ان يصرف قسم منها على عشرات منهم تكفيهم ذل الطلب ، ويصرف الباقي في مرافق الحرمين الشريفين ثم على تزيين البلدين وفتح الشوارع والطاوات فيها وجلب المياه وتوزيعها في مناهل ، غرس الحدائق وانشاء المتنزهات والساحات فمن اعظم ما شهدته ان لا يكون في طيبة سوى شجيرات مع انه كان على الحكومة لو غرست كل سنة عشرين شجرة ان يجعلها منها الوف تحسن الهواء ويكون منها مورد يصرف في مرافق المدينة وكل حكومة تريد العمران لا يصعب عليها تحقيقه مهما حاربها الجو وما طبيعة هواء المدينة باصعب من طبيعة عدن ومع هذا اصبحت عدن بحكومتها جنة عدن بعد ان كانت جحيماً يود من نزولها كل سائح

مبلغ عرف الطريق

بحول العمران . ما احرانا الى تحويل الامن والامان الآن لانه هو اول ما تطالب به الحكومة عند شيخها الحالية . زائرة جداً في المدينة بالنسبة لسائر المدن العثمانية ومع هذا ترى اللصوص . القطاع الكويتي يسطون سيرا بحيث كل من يتناولونه خارج السور ليلا واحياناً نهاراً . انك كنت لاولاً في الخندق الرحب الكبير الذي جاء احد الوطنيين خارج السور بالحجر الاصم اطيانات كلف نحو عشرين الف ليرة وهو [illegible] من سور البلد [illegible] بعض الاحباب الى اول المرج الثاني من الليل ومع ان الحكومة الاتحادية [illegible] من شرطيين يرافقانا الاول [illegible] يتكلمون [illegible] الى الدول كل ليلة حولا من اللصوص [illegible] مع قطاع السابلة اكثر من الخائب [illegible] اللصوص [illegible] في سور [illegible] بعد من قطع الاعناق لا [illegible] من يسرق و [illegible] التي [illegible] ازاكته عصابات [illegible] والارهاب [illegible] حتى في [illegible] في حين من دخله كان آمناً .

ثم انه لا عجب [illegible] الحكومة [illegible] في تقرير الامن في [illegible] اسباب [illegible] كل صاحب [illegible] ان يدفع [illegible] خوة [illegible] اللصوص الاعراب الذين يتقاضون خوة [illegible] من [illegible] المدينة [illegible] الاشراف . [illegible] لا يجرأ احد من اهل المدينة ان يكتبها في الصحف او يرفعها الى المقامات العليا [illegible] الحكومة [illegible] لا يعدمون انصاراً من الاهلين [illegible] يرهبون [illegible] ويقطعون عليه [illegible] اذا شعروا . ومن الغريب ما [illegible] ان الحكومة [illegible] حاكمية المدينة [illegible] في [illegible] ان معظمهم [illegible] مصري [illegible] دة في [illegible] وعدم معرفة بالامور الادارية [illegible] على [illegible]

[illegible] كثيراً في مسجد الرسول [illegible] وغيرها فما رأيت الا خشوعاً من جميع من يحضرون الى الحضرة النبوية الشريفة ولا سيما من غير الناطقين بالعربية [illegible] في [illegible] — وقد سمعت خطبة [illegible] هي لا تخرج عن حد التوحيد في العمل والاعراض عن الدنيا [illegible] خطب الجوامع في بلاد الاسلام [illegible] كانت عليه

سنة السلطان الصالح . ولكن « ليس الاسلام [illegible] العرب [illegible] » كما قال علي كرم الله وجهه [illegible] الاسلام

ولولا هذه القوة التي [illegible] رجال [illegible] وعامل [illegible] لكانت [illegible] الاجتماع من حيث الفرق في المدينة [illegible] اليوم [illegible] عليه الصلاة والسلام [illegible] حكمته [illegible] الظاهرة [illegible] الامر هكذا يحصل [illegible] الموثوقون الى [illegible] وسياسة [illegible] في هذه الحجرة الجامعة [illegible] مشكل [illegible] وهذا من القوى المهمة التي استعملها . كما خلفت في بلادنا مراهب وقوى .

[illegible] في المدينة عناية بامور النظافة والاسلام جعلها من اول الفروض [illegible] في المدينة عشرات من الحكام [illegible] نحو ٥٠ [illegible] لاشراف رجال الصحة [illegible] في المستشفيات . اما المدارس والكتاتيب [illegible] الاعمال والفقه والعربية [illegible] من [illegible] في المدارس الاميرية [illegible] مدارس لبنان الاهلية ! فكانما [illegible] الا ان تكون [illegible] في بلادنا [illegible] . [illegible] في هذا الباب ان الورق [illegible] والروبيات الانكليزية [illegible] في المدينة اكثر من النقود [illegible]

واهم خزائن الكتب في المدينة [illegible] مكتبة السلطان محمود [illegible] لا [illegible] سطر . [illegible] وربما [illegible] مكتبة في البلاد [illegible] الاسلام [illegible] نحو عشرة آلاف [illegible] مخطوط [illegible] من [illegible] الكتب [illegible] مكتوبة بخط مشرق بديع في عهد [illegible] الكتبة من [illegible] من [illegible] والصحابة [illegible] لا تكاد تجد مثلها في دار الكتب الخديوية بمصر [illegible] الا لكثرة [illegible] في [illegible] الكافية [illegible]

[illegible] في كثرة عناية ملوك الاسلام بامره في كل [illegible] حكومة ليس من السعة وجودة البنيان باكثر من جامع السلطان احمد او الصوفية من جوامع الاستانة [illegible] من جامع الازهر [illegible] والجامع الاموي بدمشق كل هذا المسجد الشريف [illegible] عددها لا [illegible]

عشرات الالوف ثم كره بعض الملوك بحسب ما اقتضت الحال ولو نظرنا اليوم الى عدد المسلمين وهم لا يقلون عن ٢٥٠ مليونا وعددنا من يحج و يزور منهم كل سنة لاقتضى لنا ان نجعل سعة الحرم المدني اربعة اضعاف ماهو الآن في الاقل ونزينه بجميع اسباب المدنية الحديثة التي لا يحرمها الشرع ولا تنم عن اسراف ٠

قال ابن قتيبة في المعارف : روى ابراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن نافع ان عبدالله بن عمر اخبره ان المسجد يعني مسجد المدينة كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبنيا بلبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل فلم يزد فيه ابو بكر شيئا وزاد فيه عمر ثم غيره عثمان وزاد فيه زيادة كثيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة وبالقصة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج ووسعه المهدي سنة ستين ومائة وزاد فيه المأمون زيادة كثيرة ووسعه والمؤذنون فيه من ولد سعد القرظ مولى عمار بن ياسر وقرأت في موضع زيادة المأمون امر عبدالله عبد الله بعمارة مسجد رسول الله سنة اثنتين ومائتين طلب ثواب الله وطلب جزاء الله وطلب كرامة الله فان الله عنده ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا امر عبدالله عبدالله بتقوى الله ومراقبته وصلة الرحم والعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتعظيم ما صغر الجبابرة من حقوق الله واحياء ما اماتوا من العدل وتصغير ما عظموا من العدوان والجور وان يطاع الله ويطاع من اطاع الله ويعصى من عصى الله فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الله والتسوية بينهم في فيئهم ووضع الاخماس مواضعها